

اجتهادات قصة البشر

(لماذا اخترنا العيش بالطريقة التي نعيش بها الآن؟ وهل كانت هناك طرق أخرى لم نجربها؟ هل اخترنا أصلاً؟ .. لماذا عاش أغلب البشر لا يملكون شيئاً، بينما ظلت قلة قليلة، تملك كل شيء تقريباً؟..)؟ لعل هذا هو السؤال الأهم من بين أسئلة عدة، يبدأ بها الصديق جمال أبو الحسن الكاتب والدبلوماسي كتابه الصادر قبل أيام (300000 عام من الخوف – قصة البشر). كتاب ثرى وممتع مضموناً وأسلوباً اختار له الكاتب صيغة رسائل مع ابنته التي تخيل أنها كانت فى الغربة خلال ذروة جائحة كورونا. فاضت رسالتها الإلكترونية الأولى بالقلق والخوف. فرد عليها بأن لديه قصة مسلية للغاية تفيدها، وهى قصة البشر على الأرض. وفى هذه القصة المروية بعمق وتبسيط غير مخلٍ فى آن معاً مزيج من التاريخ والأنثروبولوجى والاجتماع والبيولوجى والكيمياء والفيزياء والفلسفة والاقتصاد لا يختلف كثيراً على ما يتعلق بالبيولوجى والكيمياء والفيزياء، بخلاف الاجتماع البشرى وما يتصل به من تاريخ وفلسفة، فى مراحل مازالت أنماط التفاعلات بين البشر خلالها مجهولة. بذل الكاتب جهداً كبيراً فى تقديم سردية مثوقة لقصة البشر،

معتمدًا على الطريقة التي يفكرُ بها فى كيفية تطور حياة الكائن البشرى، وتشكل المجتمعات الأولى الصغيرة، ثم المجتمعات الأكبر. وطغت هذه الطريقةُ المحافظةُ تمامًا على طريقةٍ أخرى تحررية تفكرُ بها ابنته. خلاصةُ الطريقةِ المحافظة، بشيء من الاختزال، أن نمط الحياة القائم على الطغيان والتفاوت والظلم والقهر وسلوك القطيع هو الطبيعي، وربما الوحيد، أى أنه لم يكن فى الإمكان أبدع مما كان. أما الطريقةُ التحررية، التى تعبر عنها الابنة فى صفحاتٍ قليلة وفى صورة أسئلةٍ مهمة عن معنى الإرادة إذا كان الطريق الذى سلكته البشرية حتميًا، وعن فرض الأقوياء سطوتهم على نحوٍ أدى إلى تعاسة أغلب البشر عبر العصور، وغيرها من الأسئلة التى طرحت فى صيغة تجعلها هامشيةً وضعيفة رغم أنها ليست كذلك فى عصرنا. قد يكون المحافظون أكثر عددًا من المتحررين بين عموم البشر، ولكن ليس فى الأوساط الفكرية والثقافية والأكاديمية، وهو ما سنعودُ إليه فى وقتٍ لاحق.